إبداعات التصوير المكاني

في شعر العالم الجليل محمد الخضر حسين

إعداد

د. رشـــا عبد الرؤوف الحبيشي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

بكلية العلوم والآداب بجامعة نجران

المستخلص:

إن من يستنطق ديوان (خواطر الحياة) للشيخ محمد الخضر حسين يتضح له بجلاء استخدامه الألفاظ الدالة على المكان سواء أكان مكانًا مقدسًا أم مكانًا ذا دلالات خاصة ،وقد شملت الدلالات أبعادًا رئيسة، منها البعد الوجداني صور فيه عشقه لمشاهد الطبيعة في بلاده تونس الخضراء ، كما استطاع أن يوظف المكان في وصف ما يعانيه من شوق واغتراب.... والبعد الاجتماعي صور فيه النزعة القومية لكل عربي غيور على تراب وطنه الغالي؛ وذلك من خلال قصائده عن فلسطين...أما البعد الديني فقد صور فيه المشاعر الإسلامية للشعر الإسلامي، وقد ظهر جليًا في قصيدته (مشاهداتي في الحجاز) التي تصف الرحلة المقدسة للحج والعمرة.

وقد رسم شيخنا محمد الخضر صوره المكانية في ضوء عدد من السمات الفنية، أهمها التشخيص فهو لا يحاكي المكان، وإنما يصوره إنسان يتكلم ويتعجب ويعشق ، كما عنى بإبراز عنصر الحركة في صوره المكانية ، فالمكان ليس ساكنا وإنما يمور بالحركة الدائبة، وحمّل الألوان دلالات نفسية، فهو يعرض اللوحة بألوانها الطبيعية ، ولكنه في الوقت نفسه يدع المتلقي يلمح ظلالًا فنية تضفى على الصورة الشاعرية حيوية يمتزج فيها العنصر الظاهر والعنصر الخفي.

كما اتخذ شاعرنا من المكان وفنيته وتعدد الأماكن التي ارتحل إليها ومرّ بها بداية بتونس ومرورًا بالشام والحجاز ومصر ، منبرًا للإصلاح الاجتماعي فقد كان شاعرًا إسلاميًّا يشغله حال الأمة الإسلامية ويسعى إلى خدمة الإسلام والمسلمين.

Abstract:

Those who question the Diwan (thoughts of life) of Sheikh Mohammed Al-Khader Hussein clearly show him the use of the words that indicate the place, whether a sacred place or a place with special connotations, and included the implications of the main dimensions, including the emotional dimension in which he liked the scenes of nature in his country Tunisia Green, Was able to employ the place in describing the suffering of longing and alienation .... The social dimension of the image of the nationalism of every Arab jealous of the dust of his homeland dear; and through his poems about Palestine ... The religious dimension has been depicted in the Islamic feelings of Islamic poetry, He appeared clearly in his poem (My Views in the Hijaz), which describes nomads Holy Mosque of Hajj and Umrah.

Our Sheikh Muhammad Al-Khadr drew his spatial image in the light of a number of technical features, the most important of which is the diagnosis. It does not mimic the place, but it is depicted by a person who speaks and marvels and loves. He also expresses the element of movement in his spatial image. The place is not static, It displays the painting in its natural colors, but at the same time lets the recipient hint at the artistic shadows that add to the poetic image of vitality mixed with the visible element and hidden element.

He also took our poet from the place and his art and the variety of places he traveled to and passed through the beginning of Tunisia and through the Cham, Hijaz and Egypt, a platform for social reform was an Islamic poet occupied by the Islamic nation and seeks to serve Islam and Muslims.

المكان وأهميته الفنية :

إن الدراسات الحديثة قد أعطت اهتمامًا بالغًا بعنصر المكان وأفردت عنه دراسات متنوعة (١) ، وهذا لا يعني أن علماءنا السابقين قد غفلوا عنه ، ولم ينتبهوا إليه في دراساتهم النقدية والأدبية، بل على العكس تمامًا فهناك إشارات وإيحاءات تبين أهمية المكان في النص الشعري، وإسهام الظروف المكانية في تشكيل لغة الشعراء، واستدعاء الصور الفنية ، ومن ذلك ما روي عن جرير أنه " إذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلًا: يشعل سراجه ويعتزل، وربما على السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه... وروى أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خاليًا منفردًا وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية، فيعطيه الكلام قياده." (٢)

فهذا النص يؤكد أهمية اختيار البيئة المكانية لنسج الشعر وجريانه على ألسنة الشعراء ، وليس هذا فحسب بل نجد اهتمام الأدباء في تصنيف مؤلفات خاصة بالمكان مثل: رسالة الأوطان والبلدان للجاحظ، وكتاب المنازل والديار لابن منقذ، والأزمنة والأمكنة للأصفهاني.

---

(١) منها: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا تأليف حسن العبيدي ، فلسفة المكان في الشعر العربي د. حبيب مونسي ، جماليات المكان لغاستون باشلار، وغيرها من الدراسات المتخصصة عند بعض الشعراء كـ جماليات المكان في شعر ابن خفاجه الأندلسي د. أحمد نبوي بحث منشور في مجلة فكر وإبداع بمصر ٢٠١٣م، والمكان وتحولات الهوية عند محمود درويش رسالة ماجستير للباحثة ليانة عبد الرحيم ٢٠١٢م، وفاعلية المكان في الصورة الشعرية سيفيات المتنبي أنموذجًا للباحثين علي متعب ومنى شفيق بحث منشور في مجلة ديالي ببغداد العدد الأربعون ٢٠٠٩م، المكان في الشعر الأندلسي رسالة دكتوراه للباحثة أمل العميري ٢٠٠٦م....

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر دار الجيل ببيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م، ج١ ص ٢٠٦

وقد بيّن حازم القرطاجني أن السبب الأول الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة ، وإذا أراد الشاعر أن يبقي ذكرًا أو يصوغ مقالًا يخيل فيه حال أحبابه ويقيم المعاني المحاكية لهم في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويحاكي فيه جميع أمورهم حتى يجعل المعاني أمثلة لهم ولأحوالهم مرتبة ترتيب أحويتهم وبيوتهم، وذكر أن المسموعات تجري من الأسماع مجرى المرئيات من البصر، فقصدوا أن يحاكوا البيوت التي كانت أكنان العرب ومساكنها، وهي بيوت الشعر، فيكون اشتمال الأقاويل على تلك المعاني مشبهًا لاشتمال الأبيات المضروبة على من قصد تمثيله بها وأن تجعل تذكرة له، ويكون ما بين المعنى والقول من ملابسة مثل ما كان بين الساكن والمسكن.([1])

كما أن تسمية أجزاء الشعر بالأبيات ليست مجرد تشبيه ظاهر وإنما هي تجسيد لروح الشعر وقراره ؛ ولذا كان " البيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدُّربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنى عنها." ([2])

ومعالجة المكان متأصلة في وجدان شاعرنا محمد الخضر حسين ([3]) حيث الحنين لمكان النشأة والصبا، فقد قال في مقدمة ديوانه خواطر الحياة " نشأت في بلدة

(١) انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب الخوجة ، الناشر الدار العربية للكتاب بتونس ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٨م، ص ٢٢٤ بتصرف.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدبه لابن رشيق ، ج ١ ص ١٢١.

(٣) ولد الإمام محمد الخضر حسين (يوم ٢٦ رجب ١٢٩٣ هـ – ٢١ تموز ١٨٧٣ م) في واحة النخيل نفطة بالجنوب التونسي ، وحفظ القرآن من صغره، في سن الثالثةَ عشرةَ من عمره =

=انتقلت عائلته من "نفطة" إلى مدينة "تونس" في أواخر سنة (١٣٠٦ هـ – ١٨٨٦ م). وانضم إلى (جامع الزيتونة) طالبًا للعلم، وهذا هو السبب في انتقال الأسرة إلى العاصمة. ويُعَدُّ (جامع الزيتونة) في تونس مثل (الجامع الأزهر) في القاهرة، و (جامع القرويين) في المغرب؛ من جهة تهيئة الطالب دينيًا وعلميًا وخلقيًا إلى أعلى منزلة ومرتبة يصل إليها. ثم هاجرت أسرة الإمام محمد الخضر حسين إلى دمشق سنة (١٣٢٩ هـ – ١٩١١ م)، والتحق بها في (٤ شعبان ١٣٣٠ هـ – ١٨ تموز ١٩١٢ م)، ودامت رحلته مدة أربعة أشهر، وعاد إلى تونس في ٢٤ نوفمبر تشرين الثاني ١٩١٢ م، وأقام فيها مدة زاول خلالها نشاطه الثقافي، ولم تطب له الإقامة مجددًا؛ لظروف عديدة، فقرر الانتقال نهائيًا إلى دمشق في شهر ديسمبر كانون الأول ١٩١٢م، وكانت سنّه تُناهز الأربعين، وتكونت شخصيته من حيثُ العلمُ والمعرفة، وسبقته شهرته إلى دمشق، فاستُقبل بها بالتكريم والتقدير. وامتدت إقامته في دمشق من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٢٠ م، وتمثلت هذه الفترة في حياة الإمام بكرة الترحال والتنقل في العالم العربي وبعض البلدان الأوربية. كما نجده شعلة متوقدة من النشاط والإقبال على تحقيق رسالته التي اختطها لنفسه في خدمة الإسلام، والعمل في ميادينه الشتى التي يرتاح لها ضميره، وتطمئن بها سريرته، ويرضي بها ربه ودينه. اعتُقِلَ الإمام مدة ستة أشهر وأربعةَ عشرَ يومًا في شهر رمضان سنة (١٣٣٤ هـ – ١٩١٦ م)، وحتى الرابع من شهر ربيع الثاني ١٣٣٥ هـ، ووجهت إليه تهمة الإخلال بأمن الدولة العثمانية؛ لحضوره اجتماعًا خاض فيه المجتمِعون بسياسة الدولة، واستفتى فيه أحدُ المحامين الإمامَ عن نكث العهد من طاعتها، والخروج عليها، ودعا بعضُ الحضور إلى تأسيس جمعية للعمل على الانفصال عن الدولة العثمانية. وبالرغْمِ من أن الإمام من دعاة الوحدة الإسلامية، ولا يرتضي مثلَ هذه الدعوات، إلا أن السلطة اعتبرت عدمَ إبلاغها عن الاجتماع تهمة، وأحالته إلى المجلس العرفي العسكري الذي حكم بالبراءة من حيث النتيجة، وقدم الاعتذار للإمام. ثم بدأت مرحلة الاستقرار في حياة الشيخ = من عام ١٩٢٠ – ١٩٥٨ م، ارتقى فيها إلى أعلى مراتب العلمية: بدأها في عمله في التصحيح بدار الكتب المصرية– تشكيل الجمعيات الإسلامية والوطنية (جمعية الشبان المسلمين – جمعية الهداية الإسلامية – جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية – جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية) وألقى المحاضرات القيمة فيها. – تأسيس وإصدار وتحرير المجلات("نور الإسلام" – "الهداية الإسلامية" – "لواء الإسلام") تصدِّيه وردوده المتعددة، ولا سيما على طه حسين، وعلي عبد الرازق، وغيرهما، وقد أكسبته الشهرة الواسعة– نشاطه اللغوي في (مجمع اللغة العربية)– تدريسه في كليات (الجامع الأزهر)– عضويته في هيئة كبار العلماء – إمامته لمشيخة الأزهر في =

من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها "نفطة" ، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهبُّ في مجالس علمائها، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت في سن الثانية عشرة نظم الشعر..." (١)

ولعل حنين الإنسان القوي لمكان النشأة والطفولة والصبا يفسر الإنتماء الفطري للوطن وتذكره الأحداث التي جرت فيه، وحنينه إلي تلك الأيام الخوالي وما كان فيها من دفءٍ وطمأنينة، إذ يجسد شاعرنا ذلك بقوله: (٢)

رَوَيْنا عَنِ الْماءِ الْمَعينِ بِتُونُسٍ أحـاديثَ عَنْ يَنْبوعِ زَغْوانَ رائقَه (٣)

وخالَجَني رَيْبٌ إلى أَنْ عَرَضْتُها على السَّنَدِ الْعالي فَكانَتْ مُطابِقَه (٤)

= (٢ المحرم سنة ١٣٧٢ هـ – ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٢ م)، واستقال في (٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ هـ – ٨ يناير سنة ١٩٥٤م) وتوفي رحمة الله عليه في (١٣ رجب ١٣٧٧ هـ – ٢ فبراير سنة ١٩٥٨ م). ودفن بالقاهرة ... راجع ترجمته في موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، الناشر دار النوادر بسوريا، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ،ج١ ص ١١: ٣٤.

(١) ديوان خواطر الحياة للإمام محمد الخضر حسين، الناشر دار النوادر، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م ، ص٦.

(٢) ديوان خواطر الحياة ص ١٦١.

(٣) زَغْوَانُ: بفتح أوّله، وسكون ثانيه ثمّ واو، وآخره نون، قال ابن الأعرابي: الزغي رائحة الحبش، فإن كان عربيّا فهو فعلان منه، قيل: هو جبل بإفريقية، قال أبو عبيد البكري: بالقرب من تونس في القبلة جبل زغوان، وهو جبل منيف مشرف يسمى كلب الزقاق لظهوره وعلوّه واستدلال السائرين به أينما توجّهوا، فإنّه يرى على مسيرة الأيام الكثيرة، ولعلوّه يرى السحاب دونه، وكثيرا ما يمطر سفحه ولا يمطر أعلاه، وأهل إفريقية يقولون لمن يستثقلونه: أثقل من جبل زغوان وأثقل من جبل الرصاص! وهو على تونس...ويزعمون أن فيه قرى كثيرة آهلة كثيرة المياه والثمار، وفيه مأوى الصالحين وخيار المسلمين... راجع معجم البلدان لياقوت الحموي ، الناشر دار صادر ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م ،ج٣ ص ١٤٤.

(٤) السند: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح... راجع القاموس المحيط للفيروزآبادي ، الناشر مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م ، ص ٢٩٠.

نسج الشاعر هذين البيتين عند ينبوع زغوان بالقرب من مدينة تونس حيث العين الدافقة، التي يجري ماؤها في أنابيب تحت الأرض ، وكان الشاعر قد زارها، وصعد إلى أعلى الجبل ، وانسال الشعر على قريحته في تلك الطبيعة الزاهية ، والبيت الأخير به تورية في قوله (السند العالي) فلا يقصد المعني الظاهر وإنما عني السند في الحديث الشريف ، وهو طريق المتن، أو هو رواة الحديث، فقد نازعه الشك في تلك الأحاديث التي ساقها أصحابه عند ينبوع زغوان فقام بعرضها على الرواة الثقاة فجاءت صحيحة ومطابقة.

وعلاقة الشاعر بالمكان علاقة وطيدة ، فهو إما أن يلجأ لتصويره تصويرًا خارجيًّا ، يصف ملامحه وأجزاءه ؛ ليستمتع به جماليًا ، وإما أن يعقد بينه وبين المكان علاقة حميمة ، فيخلع عليه الصفات الإنسانية ؛ لعقد ألفة معه ، أو مصادقة رغبة البوح ، وإفشاء الأسرار والهموم له ، وليشاركه أحزانه وأفراحه ، فنرى المكان تارة يكلمه وينطق بالحكم والدرر ، وتارة يضحك ويطرب ، ومرة يبكي أو يرثي ، وقد ينتشي لانتشاء الشاعر ، كالروض الذي يبتسم ، والأرض التي تصفق ، وقد ينذر المكان ويتوعد ، وقد يكون ملجأ وملاذًا لهارب كالجبال، وقد يرحب ويستقبل بالبشر والسرور.

وقد أدرك الشيخ أهمية المكان بالنسبة إليه ، ومدى علاقته به ، فوظّفه في نصوصه الشعرية ، فالمكان هو الأرض التي يعيش عليها ، والبيت الذي يسكنه ، والروض الذي يتنفس فيه مع رفاقه ، ويستمتع بما فيه من ألوان الجمال ، والأماكن المقدسة التي يتعبد فيها ، والوطن الذي نشأ وتربى فيه . إن المكان يحوط به من كل جانب ، لذلك أولاه عنايته واهتمامه ، وأصبح شديد الارتباط به.

***

الأبعاد الجمالية ودلالاتها الفنية لدى الشاعر:

على الرغم من اختلاف الشعراء في ذكر الأمكنة ، وفي المعاني التي تحملها مفرداتهم الشعرية فإنه يبقى في مخيلتهم أبعاد خاصة تثري المكان وتنقله من عالم إلى عالم آخر ، ومن أهم هذه الأبعاد التي احتواها المكان في شعر الشيخ محمد الخضر حسين: ما يتعلق بالبعد الوجداني ، والبعد الاجتماعي، كما أن هناك أبعاد روحانية ، وسأعرض ذلك بالتفصيل– إن شاء الله – كل على حدة ؛ لبيان الدلالات الفنية لكل منها.

البعد الوجداني ودلالاته الفنية :

إن أهم ما يميز شعرية المكان أو توظيف المكان شعريًا، أنه يقع بين اتجاهين هما: اتجاه التشكيل الشعري واتجاه التأويل الفني، ويتشكل الاتجاه الأول وفقًا لرؤية شعرية غالبًا ما يتحكم فيها الخيال ليمنحها بعدًا تأثيريًا جماليًا ، أما الاتجاه الثاني فيكون لأحاسيس المتلقي ورؤيته الذوقية وأسسه النقدية أثر في صياغة تجربة الشاعر.(١)

وبهذا يكون المكان المدمج في بنية القصيدة منفتحًا على عالم التخييل عند المتلقي يتمثل القصيدة وفقًا لذوقه الخاص، ويستشعر الأبعاد الفنية حسبما تمليه عليه حالته النفسية والشعورية ، لذا نجد كل قارئ له رؤيته الفنية في تلقي أبيات القصيدة التي تختلف عن غيره من القراء ، وهذا هو السر الذي يجعل للشعر الرونق والبريق الدائم المتجدد مع كل المتلقين في كل العصور والبلدان.

(١) فاعلية المكان في الصورة الشعرية د. علي متعب ، د. منى شفيق ص ٤.

وقد حفل ديوان خواطر الحياة بقصائد وجدانية رائعة في الحنين إلى وطن الشاعر تونس، وذكر محاسنها من مناظر طبيعية خلابة ومروج خضراء ووصف أبنيتها وحضارتها ومجدها العريق ، ويتطلع للرجوع إليها مستعينًا بالذكريات، ومستلهمًا أحاديث الرفاق عنها ، ومن ذلك قوله في قصيدته (تحيّة الوطن) التي " قالها أيام مقدمه من الشام إلى مصر سنة ١٣٣٩ هـ متشوقًا إلى تونس ومن فارقهم بها من الأصدقاء" (١)

يا مَوْطِني لَمْ أَنْسَ عَهْدَ الشَّبابْ ... عَذْبَ الرِّضابْ (٢)

وَرَيْثَما شَمَّرَ يَبْغي الذَّهابْ ... صاحَ الْغُرابْ

بِنَّا وخُضْنا في غِمارِ الصِّعابْ ... بِلا حِسابْ (٣)

بَيْني وَبَيْنَ المَجْدِ عَهْدٌ يُهابْ ... فَلا عِتابْ

فَصَمْتَ بي يا بَيْنُ عِقْدَ الرِّفاقْ ... بَعْدَ انْتِساقْ

وقُمْتَ تَنْعي عِنْدَ شَدِّ الوَثاقْ ... يَوْمَ التَّلاقْ (٤)

---

(١) ديوان خواطر الحياة ص ١٨٦.

(٢) الرضاب (قطع الثلج والسكر والبرد) ، ويقال لحب الثلج، رضاب الثلج، وهو البرد، (و) الرضاب (: لعاب العسل، و) هو (رغوته، و) الرضاب أيضا (: ما تقطع من الندى على الشجر) والرضب: الفعل، وماء رضاب: عذب ... راجع تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية د. ت ، ج٢ ص ٤٤٩.

(٣) الغمر: الماء الكثير وجمعه غمار، وغمر البحر: معظمه، وجيش يغتمر كل شيء: يغطيه ويستغرقه...راجع لسان العرب لابن منظور الناشر دار صادر الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ، ج٥ ص ٢٩

(٤) استلهم الشاعر معاني القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ سورة غافر: الآية ١٥، وإنما سمي يوم التلاقي لتلاقي أهل الأرض وأهل السماء فيه... راجع لسان العرب لابن منظور ج١٥ ص ٢٥٤.

مَلْقى رِفاقي في لَيالي المُحاقْ ... مِثْلُ الفِراقْ (١)

إنْ فاتَني مَرْآهُمُ بِالحِداقْ ... فَالْوُدُّ باقْ (٢)

نلمح مدى الحنين والشوق إلى الوطن الحبيب في استهلال الشاعر أبياته باستخدام أداة المنادى البعيد (يا موطني) دلالة على بُعد المكان الظاهري ، على الرغم من القرب الداخلي في نفس الشاعر لذا أضافه إلى ياء المتكلم؛ ليعزز شوقه وحنينه إلى وطنه حيث الرفاق وأيام الشباب ذات الريق العذب الذي يحس حلاوته في فمه دائمًا.

والشاعر تظهر لديه النزعة الدينية في استلهامه لمفردات القرآن الكريم (شد الوثاق – يوم التلاق) في أبياته السابقة ؛ ليؤكد على كونه شاعرًا إسلاميًّا مناضلًا عن دينه بكل يقين ، فيجسد المعاني القرآنية عندما حيل بينه وبين أصحابه، كأنه أصبح في أسر البين مشدود الوثاق يبكي يوم اللقاء.

ويصور الشاعر السنوات التي تسلّط بها المستعمر على تونس، وسلب حريتها، وظلم شعبها بأنها ليال المحاق التي لا يظهر فيها القمر، ولا يتضح المكان الذي تعود على الاجتماع فيه مع أصدقائه وأصبحت عينه لاتراهم، ولكن ودّهم باقٍ في قلبه لا ينساه.

---

(١) المحاق : آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم ير، أو ثلاث ليال من آخره ، ومنهم من جعل ليالي المحاق ليلة خمس وست وسبع وعشرين لأن القمر يطلع.. راجع تاج العروس للزبيدي ج٢٦ ص ٣٧٨.

(٢) الحدق: جماعة الحدقة، وهي في الظاهر سواد العين، وفي الباطن خرزتها وتجمع على الحداق، وقيل: السواد الأعظم في العين هو الحدقة والأصغر هو الناظر وفيه إنسان العين ... راجع تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري تحقيق محمد عوض، الناشر دار إحياء التراث العربي ببيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ج٤ ص ٢٢.

حَيَّا رُبى تونُسَ ذاتِ الزُّهورْ ... عَهْدُ السُّرورْ

وافْتَرَّ في طَلْعَةِ تِلْكَ الْقُصورْ ... أُنْسُ الْبُدور

ما الأُنْسُ في أَقْداحِ راحٍ تَدورْ ... ما بَيْنَ حُورْ (١)

يلقي الشاعر التحية على حدائق تونس الخضراء على سبيل التشخيص فيصور ذلك المكان بإنسان مبتهج يُلقي عليه السلام، ويطلب منه الهدوء والتريث عند مطالعة قصور تونس البهية التي تسكنها الجميلات التي كالحور العين ، وكأنه يصور جنة الخلد وما بها من القصور والحور العين دلالة على نزعته الإيمانية واستلهامه للمعاني الإسلامية.

يا شاطِئَ الْمَرْسى إلامَ الهُجودْ ... فُكَّ الْقُيودْ (٢)

وكُنْ كَما كُنْتَ لِعَهْدِ الجُدودْ ... غِيلَ الأُسودْ

يَمْرَحُ فيكَ العِزُّ بَيْنَ الجُنودْ ... ضافِي البُرودْ

فَأَنْتَ لا تُزْهى بِتَلْحيْنِ خُودْ ... وَنَقْرِ عودْ

يكرر الشاعر أسلوب المنادى البعيد في قوله (يا شاطئ المرسى) دلالة على البعد المكاني ، ويجسده في هيئة إنسان كثير النوم لا يكاد يفيق من نومه ويقول له فك قيودك التى تحاصر تونس وأهلها، وارجع لسابق عهدك زمن الجدود وقت أن كنت

(١) ديوان خواطر الحياة ص ١٨٧.

(٢) المرسى مدينة ساحلية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط تقع على مسافة ١٨ كيلومترا شمال مدينة تونس، وبها منتزهات تجمع بين منظر البحر الأبيض والحدائق الأنيقة. وطالما تمتع الشاعر بالتنزه فيها، إذ هي مقر صديقه منذ عهد طلب العلم العلامة المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور... راجع هامش الديوان ص ١٨٨.

عرينًا للأسود لا يستطيع أحد الاقتراب منك ، يمرح فيك الجنود بعز وفخر وبهاء ، فبهاءك الحين ليس بالحسناوات ولا عزف الأعواد وآلات الغناء، وكأني به يتحسر على ذلك الزمن البائد الذي كان يزهو فيه ذلك الشاطئ بجنوده الأبطال.

يا مَعْهَدًا يَثْمُلُ فيهِ الْكِرامْ ... بِلا مُدامْ (١)

وابْتَسَمَتْ أَزْهارُهُ في نِظامْ ... بِلا كِمامْ

نَهَضْتَ تَحْدو بالنُّفوسِ العِظامْ ... إلى الأَمامْ

أَقْلامُكَ الحُرَّةُ تَرْعى الذِّمامْ ... ولا تَنامْ

وفي ختام القصيدة يوجه الشاعر الخطاب إلى جامع الزيتونة ذلك الصرح العلمي ويطلب منه أن يقوم بدوره المنوط به ، فأهله سكرى بلا خمر ، فعليه أن يعود لسابق عهده حيث ترى ابتسامات طلابه كأنها أزهار في أكمامها، وتدفع النفوس العزيزة إلى الأمام ، فأقلام هؤلاء العظماء تشخص فيها الحرية ، وترعى ذمام البشرية لاينتابها النوم ولا تغفل عن آداء دورها.

***

البعد الاجتماعي ودلالاته الفنية:

إن الأديب المسلم يؤدي رسالة عظيمة في تصوير عنصر المكان وتجسيد مجتمعه ، فهو ضمير الأمة الحي، المعبّر عن آمالها وآلامها، وهو في أدبه فجرٌ صادقٌ يوشك احتواء هذا الكون، ولحن عذب يسّري عن النفوس الحزينة أشجانها، فهو في رباط دائم، وشعره رسالة عظيمة وواجب من الواجبات؛ لذا كان الشيخ محمد

(١) ديوان خواطر الحياة ص ١٨٨.

ترجمان لحال أمته العربية ، فقد دافع بقلمه عن مشاكلها وقضاياها ، كما جسد الأماكن التي بها اضطراب وقلاقل في وطنه ، ونادى بشعره ونثره مدافع عن فلسطين العربية من ظلم اليهود والغرب ، كما عالج مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه خاصة قضية التعليم الديني في مصر وما آلى إليه.

ومن ذلك ما عرضه في جمعية الهداية الإسلامية لتقديم المساعدة لمنكوبي فلسطين، إذ يقول:" منذ تدفق سيل الهجرة الصهيونية على أرض فلسطين، وإخواننا العرب يلاقون أيامًا قاسية، ولا أشد قسوة من هذه الأيام التي يذوقون فيها الشدائد ألوانًا، ولا أظن ذا قلب يسمع أنباء ما يجري في تلك الأرض المقدسة من الحوادث المرهقة، ولا يذوب قلبه حزنًا على ما يتجرعه أولئك المنكربون من غصص، إلا أن يكون هذا القلب مخلوقًا من الحديد أو الحجارة." (١)

ولم يكتف الشيخ بالخطاب النثري بل وجه شعره وهو على فراش المرض؛ منبهًا للخطر الصهيوني الداهم، وحاثًا المسلمين على الجهاد في قصيدته " أى فلسطين" فيقول : (٢)

نَصبَ البُغاةُ على ذُراكِ لِواءَ ... وكَسَوْا مَرابِعَكِ الحِسانَ دِماءَ
كُنْتِ الشَّرى وديارُك الآجامُ لا ... يَبني حَوالَيْها الجَبانُ خِباءَ (٣)
وبَنوكِ أُسْدٌ مَنْ يَجُسُّ طِبَاعَها ... لمْ يَلْقَ إلا نَخْوَةً وإباءَ

---

١) كتاب الهداية الإسلامية للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ص ٢٤٦.

٢) ديوان خواطر الحياة ص ٩.

٣) والشرى: موضع تنسب إليه الأسد، يقال للشجعان: ما هم إلا أسود الشرى؛ قال بعضهم: شرى موضع بعينه تأوي إليه الأسد، وقيل: هو شرى الفرات وناحيته، وبه غياض وآجام ومأسدة...، والآجام جمع أجمة الكثير الملتف وتطلق على الغابة ... راجع لسان العرب لابن منظور ج١٤ ص ٤٣١.

ولقدْ عَهِدْتُكِ والحَياةُ أَنيسةٌ ... ورُباكِ تَزْهو بَهْجةً ورُواءَ

ويلجأ الشاعر إلى الخيال العميق في تشخيص المكان الفلسطيني عن طريق المقابلة بين الماضي المشرق والحاضر المؤلم، قبل أن تمتد إليه يد الأعداء ويلوثوا ترابه الطاهر، فقد نصبوا ألويتهم على أجزائه المرتفعة ، واكتست الرباع الحسناء دمًّا، ويتذكر عهد فلسطين السابق حينما كانت مأوىً للأسود لا يجرؤ الجبناء أن يقتربوا من أشجاره العالية ، ويصور أبناء فلسطين بأنهم كالأسود في نخوتهم وإبائهم، فقد كانت حياتهم أنيسة وحدائقهم تمتلئ بهجة وسرورًا.

أَفَبَعْدَ فَتْحِ ابنِ الوَليدِ وصَحْبِهِ ... لِلقُدسِ وَعْدٌ يَستَحِقُّ وَفاءَ (١)

مَنْ مُبْلِغُ الحُنَفاءَ أُمَّةَ أَحمَدٍ ... نبًا يَطيرُ له الْفُؤَادُ هَباءَ (٢)

ثم جسد الشيخ صورة المكان بعد تسلط العدو عليهم ، وسلب الأرض العربية منهم ، ونهب خيراتها، فيستلهم تلك المعركة الدائرة على أشرف البقاع (القدس) على

١) خالد بن الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب: سيف الله تعالى وفارس الإسلام ، قائد المجاهدين أبو سليمان القرشي المخزومي المكي وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. هاجر مسلما في صفر، سنة ثمان، ثم سار غازيا، فشهد غزوة مؤتة واستشهد أمراء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الثلاثة: مولاه زيد وابن عمه جعفر ذو الجناحين وابن رواحة وبقي الجيش بلا أمير فتأمر عليهم في الحال خالد وأخذ الراية وحمل على العدو فكان النصر وسماه النبي –صلى الله عليه وسلم– سيف الله فقال: "إن خالدا سيف سله الله على المشركين". وشهد الفتح، عاش ستين سنة، وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه، فلا قرت أعين الجبناء، توفي بحمص سنة إحدى وعشرين ومشهده على باب حمص... راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، الناشر دار الحديث بالقاهرة عام ٢٠٠٦م ،ج٣ ص ٢٢٣.

٢) الحنيف: المسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق، وقيل: هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، والحنفاء: جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه.... لسان العرب لابن منظور ج٩ ص ٥٧.

يد سيف الله القائد خالد بن الوليد وأصحابه (١) الذي تقدمهم براية الإسلام وكبر وهلل حتي تم النصر على يديه ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم ، فيعمد الشيخ إلى مقابلة هذا المجد التالد بما أطلق عليه وعد بلفور (٢) ويتعجب كيف يتم الوفاء بعهد من لا حق له ! ويستنجد بالحنفاء من أمة الإسلام الذين لا يميلون عن الطريق المستقيم أن يفيقوا من غفلتهم وينصروا القدس وأهلها ، فالأوطان لا تعلو إلا بالبذل والعطاء ، بالمال والنفس ، ولن تبلغ الأمم العربية السيادة ما دام في طبعهم الشح وحب النفس ، ولهذا قال: (٣)

لا تَنْهَضُ الأوطانُ مِنْ كَبَواتِها ... إلَّا على أَيْدٍ تَفيضُ سَخاءَ

ما سادَ قَومٌ أُشْرِبُوا شُحًّا وإنْ ... بَلَغُوا السّماءَ شَجاعَةً وذَكاءَ

---

١) راجع فتح بيت المقدس في فتوح الشام للواقدي ، الناشر دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ج١ ص ٢٢٠.

٢) وعد بلفور اتفاقية مشؤومة مع اليهود، وتكفلت بريطانيا بإعادة تأسيس فلسطين كوطن قومي لليهود ، وكان وعد بلفور قد صدر في تشرين الثاني ١٩١٧م وفيه أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وقد تمسكت الحكومات البريطانية المتعاقبة بهذا التصريح الذي أصبح عن طريق الانتداب إلزاما دوليا، وكان من غايات بريطانيا لهذا هو حماية مصالحها في السويس، فكان هذا أول الغدر الظاهر... راجع الموسوعة التاريخية الدرر السنية، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف علوي عبد القادر السقاف، الناشر موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net ،ج ٩ ص ٣٢٦.

٣) ديوان خواطر الحياة ص ١٣.

ويعقد الشيخ المصلح مقابلة بين حال العرب وحال اليهود في البذل والسخاء ، فقد بسط اليهود أيديهم بالمال والذهب والفضة من أجل تأسيس دولة إسرائيل ، فالشاعر يعتمد على أسلوب المقابلة بين حال العرب واليهود ، ويتمنى أن يرى العرب قد تسابقوا في السخاء والجود مثلهم، فيقول: ([1])

بَسَطَ الْيَهُودُ إلى اليَهودِ كُفَّهُمْ ... بِالمالِ مِنْ بَيْضاءَ أَوْ صَفْراءَ

ومَتى أَرى قَوْمي قَدِ اسْتَبَقوا العُلا ... بِسَخَاءِ كَفٍّ يَكْشِفُ اللَّأْوَاءَ ([2])

وبهذا فقد برع شيخنا محمد الخضر حسين في تصوير القضية الفلسطينية وتجسيد عنصر المكان ، وكأني به يقول على لسان هذا المكان متى يا قومي تنهضوا وتبذلوا المال والنفس من أجل تحريري من المغتصبين اليهود؟ فإن الجود والسخاء يرفع الشدة والضيق عن الأوطان .

وتعبير الشاعر بلفظ الجمع في كلمة (الأوطان) يؤكد حقيقتين : أولهما أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، وعلي الإنسان المسلم أن يدافع عنها ويبذل النفس والمال كما يدافع عن موطنه الذي نشأ فيه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ([3])، أما الحقيقة الثانية : فإن الحال التي وصلت إليها فسلطين من الغزو والاحتلال إذا لم يتحد العرب ستكون مصير

---

١) نفسه ص ١٣.

٢) اللأواء الشدة وضيق المعيشة ... لسان العرب لابن منظور ج١٥ ص ٢٣٨.

٣) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر دارد إحياء التراث ببيروت ، ج٤ ص ١٩٩٩.

الكثير من الأقطار العربية، فينبه الشيخ العرب كي ينهضوا من عثرتهم ويتحملوا المصاعب والشدائد في سبيل نصرة أوطانهم العربية .

* * *

ويستمر الشيخ في تجسيد الأماكن العربية وما آلت إليه على أيدي المستعمرين ، فيكتب قصيدته من برلين إلى الشام (١)، وتعد هذه القصيدة الرائعة من أدب الرحلات فقد صور فيها ما لاقاه من مخاطر السفر على الماء، وتحدث عن الإنجليز وجفاء طباعهم، ويتذكر عند مروره في جبل طارق أرضَ الأندلس، ويحزن عند مروره باسطنبول وقد هوت بعد الهزيمة، فيقول:

سَئِمْتُ، وَما سَئِمْتُ سِوى مُقامي ... بِدارٍ لا يَروجُ بِه بَياني

فَأَزْمَعْتُ الرَّحيلَ، وفَرْطُ شَوْقي ... إلى بَرَدَى تَحَكَّمَ في عِناني (٢)

قدم الشاعر نموذجًا حيّا للمكان في قصيدته تلك ، فيصور مقدار الملل والسأم الذي يعتريه في تلك البلدة التي لا يروج فيها شعره ، على الرغم من جمال مناظرها

---

١) التي قالها عند رجوعه من برلين سنة ١٣٣٧ هـ، وعنوانها: "من برلين إلى دمشق"، وقد ركب الباخرة من ميناء "هامبورغ" في ألمانيا، ورافقه في العودة عدد من المجاهدين، وقضى عشرين يومًا في البحر حتى وصل إلى ميناء بيروت... راجع الرحلات للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ، ص ١٥٦.

٢) أزمع على الأمر ثبت عليه عزمه... راجع مختار الصحاح للرازي تحقيق يوسف الشيخ محمد ، الناشر المكتبة العصرية ببيروت، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م ، ص ١٣٧/ بردى : نهر يمر بمدينة دمشق في ظاهرها فيشق ما بينها وبين العقيبة حتى يصخب في بحيرة المرج في شرقي دمشق، وهو أهبط أنهار دمشق، وإليه تنصب فضلات أنهرها. ويساوقه من الجهة الشمالية (نهر) يزيد، إلى أن ينفصل عن دمشق وبساتينها، وقد أكثر الشعراء في وصف بردى في شعرهم... راجع تاج العروس للزبيدي ج٧ ص ٤١٩.

الطبيعية التي نسج فيها بعض أشعاره ، ولكنها لم تلق رواجًا وانتشارًا ، لذا قرر الرحيل والشوق يملأ وجدانه ويغلب علي كيانه إلى نهر بردى بدمشق ، فركب السفينة وبدأ في تسجيل المشاهد التي يمر عليها من لندن إلى جبل طارق بن زياد ، مرورًا باسطنبول فيتحسر على الحال التي صارت إليها، فقد ملك العدو أمرها وسيطر على مقاليد الأمر بها إلى أن يصل إلى الشام فيقول: ([1])

قَصَدْتُ إلى الشَّآمِ ولَسْتُ أدْري ... أَيَقْسُو أَمْ يَلِينُ بِها زَماني

وللإفـــــرَنْجِ في بَيْروتَ عَيْنٌ ... يُسَمّى مَنْ يُســـاجِلُهُمْ بِجاني

وَصَلْتُ إلى طَرابُلُــسٍ وَحِيدًا ... أُعانِي بِالتَّنَكُّـــــرِ ما أُعَاني

يَشـــينُ قِبابَها عَلَمٌ غَريبٌ ... وَذاكَ عَـــلامَةُ الوَطَنِ الْمُهانِ

يعمد الشاعر إلى التشخيص عندما جعل الشام مقصده وقبلته ، ويتساءل هل الزمان يقسو عليه بها أم يلين ؟ فالمكان والزمان هنا يحملان صفات إنسانية تمكنهما من التعامل بالقسوة واللين معه ، وهما المقصد والملجأ من شدة الأيام وقسوتها، ولكنه يرى خلاف ما تمنى فقد سيطر الإفرنج على بيروت وجعلوا لهم عيونًا وجواسيسًا في كل مكان ، ثم يصل الشاعر إلى ساحل طرابلس بلبنان وحيدًا يعانى النكران والتجاهل، فيصطدم الشاعر بالعلم الفرنسي يعلو سواحلها ويعلق قائلًا: (ذاكَ عَـــلامَةُ الوَطَنِ الْمُهانِ)! نعم إن تنكيس علم الوطن ورفع علم العدو علي أرضه لأكبر دليل على الذل والامتهان.

***

١) ديوان خواطر الحياة ص ٢٢٧.

والمتتبع لديوان الإمام محمد الخضر حسين يجده مليئًا بالقضايا الاجتماعية والإصلاحية التي عالج بها مشكلات وهموم الوطن العربي ، ومن ذلك قصيدته (التعليم الدّيني بمدارس الحكومة وجامعاتها) ([1])، فالشاعر يحزن للحال التي وصلت إليها الأمة العربية والمآسي التي يتعرض لها الشباب المسلم، فيقول: " أليس ذلك كله نتيجة مباشرة لإهمالنا هذه الناحية الحصينة في تكوين الطفل، وإعداد التلميذ، وتثقيف النشء تثقيفا إسلاميًا يكسبه المناعة ضد هذه الجراثيم المتفشية التي تحيط به إحاطة الظلام بالليل؟ ثم ألسنا نحن الذين نتحمل بحق مسؤولية هذا النقص الفاضح في التربية، ونعتبر في نظر العدالة جناة على أولادنا، وبالتالي على أسرنا وأمتنا، وعلى شرفنا الماضي ومركزنا الحالي ومستقبلنا الآتي؟!" ([2])

كَمْ بَنى ساسَةُ العُلومِ بِمِصْرٍ ... مِنْ صُروحٍ رَصينَةٍ وَصَياصي ([3])

وَبَلَوْنا بُنْيانهَا فَلَمَسْنا ... ثَغْرَةً لَمْ يَسُدَّها كَفُّ راصي

وإذا فُلَّتِ القِلاعُ فَهاتوا ... فارِقًا بَيْنَها وبَيْنَ الخِصاصِ ([4])

حامِيَ الْعِلْمِ إنَّ في الدِّينِ بَحْرًا ... حافِلًا بِالحُلِيِّ سَهْلَ المَغاصِ

---

١) ديوان خواطر الحياة ص ١٢٣

٢) كتاب الدعوة إلى الإصلاح للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ببيروت ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ، ص ١٨٥.

٣) الصرح: القصر وكل بناء عال وجمعه صروح ، والصياصي : الحصون ... راجع مختار الصحاح للرازي ص ١٧٥، ١٨١.

٤) الخص: بيت من شجر أو قصب، وقيل: الخص البيت الذي يسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج، والجمع أخصاص وخصاص، وقيل في جمعه خصوص، سمي بذلك لأنه يرى ما فيه من خصاصة أي فرجة... راجع لسان العرب لابن منظور ج٧ ص ٢٦.

يَرْفَعُ النَّفْسَ مِنْ جُحودٍ فَتَغْلو ... بالهُدى بَعْدَ شَقْوَةٍ وارْتِخاص

يتعجب الشيخ من كثرة صروح العلم بمصر فهي كالحصون الرصينة ، ولكن من يتفحص تلك الجامعات والمدارس يجد ثغرة لم تسد بالأيدي الرصينة ، ويرى أن تلك القلاع العلمية الشاهقة إذا أفسدها بعض الخلل صارت كالبيوت من الشجر والأوراق يسهل هدمها. وتلك الثغرة هي عدم الاهتمام بالتعليم الديني بتلك المدارس والجامعات، ويوجه خطابه إلى المسؤولين بضرورة الغوص في بحر العلوم الشرعية والدينية للاستفادة من حُليّها البراق ، فهذه العلوم ترفع النفس وتعلو بالهمم وتكون هي السبيل إلى تقدم الأمة ورُقيها.

وحَياةُ الإنسانِ مَيْدانُ حَرْبٍ ... ما لَهُ عَنْ وُرودِها مِنْ مناصِ (١)
وأخو الدِّينِ يَحْتَمي مِنْ أذاها ... بِحُسامٍ عَضْب ودِرْعٍ دِلاصِ (٢)
إنَّما الدِّينُ عِزَّةٌ وعَفافٌ ... يَصْرِفُ الطَّرْفَ عَنْ وُجوهِ المعاصي

ويصور الشيخ الحياة الإنسانية على أنها تلك الحرب الدائرة والمعركة التي لا فرار ولا ملجأ منها، والذي يتخذ الدين أخًا له يحتمى من آذاها بسيف قاطع ودرع ملساء، فالدين هو العزة والعفاف للمستمسكين به، يصرفهم عن وجوه المعاصي والذنوب ويغض طرفهم عن شهوات الدنيا الزائلة.

والشيخ الإصلاحي لايعرض المشكلة فقط بل يعالجها ويقدم الحلول المناسبة لها ، حيث عرض الوسائل الإصلاحية لتلك المشكلة وملخلصها في يلي: (٣) " أن يُعنى بالثقافة الإسلامية والتربية الإسلامية كلتيهما عناية تفيد وتثمر، وتحقق الغاية

١) المناص: الملجأ والمفر... مختار الصحاح للرازي ص ٣٢١.
٢) العضب: (السيف) ، وقيده الجوهري بالقاطع، يقال: سيف عضب أي قاطع / ودرع دلاص: ملساء لينة براقة .... راج تاج العروس للزبيدي ج٣، ١٧ ص ٣٩٠، ٥٨٦.
٣) كتاب الدعوة إلى الإصلاح من ص ٢٠٣ : ٢١٢.

المرجوة من إعداد جيل ينهض بنفسه وبأمته. وعقيدتنا أن تلك الغاية لن تتحقق إلا بالوسائل الآتية:

١. أن يقرر تعليم الإسلام في المدارس على أنه مادة أساسية مهمة ، يتوقف عليه نجاح الطالب ورسوبه.
٢. أن يقرن التعليم الديني بالتربية الدينية؛ فإن منزلة التربية من التعليم منزلة الثمرة من الشجرة.
٣. أن تتوجه هذه العناية بالدين إلى جميع المدارس المصرية في كافة مراحل التعليم؛ لأن الإسلام حاجة كل نفس، فيجب أن يتزود الجميع من ثقافته علمًا.
٤. أن يعني بمنهج التعليم الديني فتتسع أبوابه حتى يشمل كل ما يحتاج إليه التلميذ والتلميذة في العقيدة، والخلق، والعبادة، والحياة العملية."
٥. أن تسند دراسة الإسلام وتاريخه وأبطاله إلى أساتذة مسلمين أخصائيين مؤمنين بعظمة الإسلام.

***

البعد الديني ودلالاته الفنية:

هناك بعض الأماكن والمواضع التي لا يختلف أحد عليها في إعطائها الشعور بالطمأنينة والراحة النفسية ، فهي ملجأ لكل مهموم ، ومرفأ لكل متعطش للهدوء النفسي والروحي، أماكن ما تفتأ تعطي زائرها ومرتادها الراحة والسكينة ، لما تشع فيها من أنوار روحانية ، وتتردد فيها من أصوات إيمانية ، إنها أماكن العبادة بيوت الله تعالى ، فعلاقة الذات المسلمة المتصلة برها – لا شك – إنها تستكن وتهدأ حينما تكون في بيت خالقها ورازقها ومفرج كرباتها ، كما أن هناك بلدانًا تستأنس

النفس حين تزورها ، أو تقيم فيها لما فيها من الأمان والطمأنينة ، أو لما تتمتع به من مناظر خلابة ، وأجواء ساحرة ، والذات المسلمة شديدة التعلق بالمدينتين المقدستين (مكة المكرمة ، والمدينة المنورة) .

فالأولى منبع التوحيد ، والثانية منطلق الرسالة المحمدية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، فمكة المكرمة تجذب زائرها إليها وإلى كل ما فيها من شعائر مقدسة، وحينما هاجر سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– من مكة إلى المدينة ، نراه يقف مودعًا بلدته الحبيبة، والألم يعتصر قلبه الشريف ؛ لمغادرة وطنه الغالي (مكة) ، فقال مخاطبًا المكان– مكة– في لغة حميمية :" والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" (١)

وكذلك الحال بالنسبة إلى مدينة رسول الله ترتادها النفوس المؤمنة ، وترتاح حين تزور المسجد النبوي والروضة الشريفة، فقد عبر عن ذلك شاعرنا في قصيدته (تحية المقام النّبوي ومناجاة الرّسول) بقوله : (٢)

وَقَفْتُ بِمَغْنىً كانَ يا أَشْرَفَ الوَرى ... لِطَلْعَتِكَ الحُسْنى مَصيفًا ومَرْبَعا (٣)

فَذا مَوْقِفٌ لامَسْتُ فيهِ بِأَخْمَصي ... أَجَلَّ مِنَ الدُّرِّ النَّضيدِ وأَرْفَعا (٤)

---

١) حديث حسن صحيح ... راجع سنن الترمذي تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، الناشر مطبعة الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٥م ، ج٥ ، ص ٧٢٢.

٢) ألقاها أمام المقام النبوي سنة ١٣٣١ هـ ... راجع ديوان خواطر الحياة ص ١٣٥

٣) المغنى المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا عنه... راجع لسان العرب لابن منظور ج١٥ ص ١٣٩.

٤) الأخمص: ما دخل من باطن القدم ما لم يصب الأرض، وهو ما رق من أسفلها، وتجافى عن الأرض، وقيل: الأخمص: خصر القدم. وقال ثعلب: سألت ابن الأعرابي عن قول علي كرم الله وجهه: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خمصان الأخمصين، فقال: إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا، ولم يستو أسفل القدم جدا، فهو أحسن ما يكون، فإذا استوى أو ارتفع جدا، فهو ذم، فيكون المعنى أن أخمصه معتدل الخمص... راجع تاج العروس للزبيدي ج١٧ ص ٥٦٧.

وذلِكَ مَرْقى كُنْتَ تَصْدَعُ فَوقَهُ ... بِما حازَ في أَقْصى الْبَلاغَةِ مَوْقِعا
وذاكَ مُصَلَّى طالَما قُمْتَ قانِتًا ... بِهِ، وَيَقومُ الصَّحْبُ خَلْفَكَ خُشَّعا
وَذي حُجْرَةٌ كانَ الأَمينُ يَؤُمُّها ... بِوَحْيٍ فَكَانتْ للشَّريعَةِ مَنْبَعا

يقف الشاعر منبهرًا بالمكان الذي قد شرف بأفضل الخلق، ولطالما شاهد طلعته المشرقة وشرفه بالمُقام فيه صيفًا وربيعًا ، فهذا الموقف قد لامسه بأخمصه فشعر بأنه أفضل من الدر المرتب المنضود وأرفع قدرًا، ويرى المنبر الشريف الذي كان يصعد عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– واستقى منه أقصى مراتب البلاغة التي كان لها وقعها في نفوس المؤمنين إلى يومنا هذا، كما وجد المصلى الذى تشرف بصلاة النبي وقنوته – صلى الله عليه وسلم – وخشوع الصحابة رضوان الله عليهم ، ويلمح الشاعر الحجرة النبوية الشريفة التي كانت مهبطًا للوحي ونبعًا متجددًا للشريعة الإسلامية السمحاءِ .

ونلحظ استدعاء الشاعر للموروث الديني فقد اختار لفظ (أخمصي) ليجعلنا نستشعر وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – بأنه كان خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء (١) ، فهذه البقعة المباركة قد لامست أفضل من مشى على الأرض ، وكأني بالشاعر يقول هآناذا أقف في نفس المكان الذي وقف فيه النبي – صلوات الله وسلامه عليه – بأخمصي قدماي وأتنفس من نفس الهواء الذي تنفس منه المصطفى – صلى الله عليه وسلم–.

***

١) راجع وصف النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الطوال للطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الناشر مكتبة الزهراء بالموصل ، الطبعة الثانية ١٩٨٣م. ص ٢٤٥، والشمائل المحمدية للترمذي، تحقيق سيد بن عباس الناشر المكتبة التجارية بمكة المكرمة الطبعة الأولى ١٩٩٣م. ص ٣٤.

إن الروح الإسلامية لتشدو دائمًا بالمعاني الدينية وتتوق دائمًا إلى استلهام الشعائر والطقوس الإسلامية في شعرها ، لذا جسد شاعرنا المكان أفضل تجسيد في قصيدته (مشاهداتي في الحجاز) ([1]) ، وصور الأماكن المقدسة في رحلتي الحج والعمرة، فيقول:

شاقَهُ الْبَيْتُ وَقَبْرُ المُصْطَفى ... ورُبوعُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينْ

سارَ شَوْطًا وَهْوَ لا يَدْري أَفي ... حُلُمٍ أَمْ في زَمانٍ لا يَخونْ

ذَكَرَ "الخِضْرَ" و"موسى" إِذْ أَتى ... مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ مُرْتادَ السَّفينْ ([2])

بدأ الشاعر وصف رحلته إلى الأماكن بالتعبير عن معاني الشوق الذي يجتاح قبله ويملك عليه أثره إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، وقبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومنازل الخلفاء الراشدين ، وابتدأ السير وهو لا يدري أفي حقيقة أم حلم ، وعندما وصلت به السفينة إلى مجمع البحرين تذكر نبي الله موسى عليه السلام وصاحبه الخضر ، فالشاعر غالبًا يستحضر معاني وألفاظ القرآن الكريم في أشعاره الدينية، فالمكان عنده في تلك الصورة هو المحبوب الذي يشتاق إليه ويشد الرحال غاية الوصول عنده وهي غاية كل مسلم ومطمح أحلامه.

---

١) ديوان خواطر الحياة ص ٢١٠.

٢) (مجمع البحرين) أي ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحر فارس والروم، وقاله مجاهد. قال ابن عطية: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين على هذا القول. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم. وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، قاله محمد بن كعب. وروي عن أبي بن كعب: أنه بأفريقية. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط ... راجع الجامع لأحكام القرآن لشمس الدين القرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٤م، ج١١ ص ٩.

وَدَلَوا مِنْ "رابِغٍ" فَاسْتَبَقوا ... يَذْكُرونَ اللهَ جَهْرًا مُحْرِمينْ (١)

في بَياضٍ ناصِعٍ تَحْسَبُهُمْ ... بادِئَ الرَّأْيِ زُهورًا في الغُصونْ

رَسَتِ الطَّائِفُ في "جُدَّةَ" لا ... بَرِحَتْ "جُدَّةُ" في حِصْنٍ حَصينْ (٢)

رَحَلوا في جُنْحِ لَيْلٍ وَأَتَوا ... مَكَّةَ الْغَرَّاءَ مِنْ نَحْوِ الحَجونْ (٣)

في رِضا اللهِ خُطًا خاضوا بِها ... في حَصًى يَغْبِطُهُ الدُّرُّ المَصونْ

دَخَلوا بَيْتًا حَرامًا يَسْتَوي ... فيهِ ذو التَّاجِ ومُغْبَرُّ الجَبينْ

شاهَدوا الكَعْبَةَ وَهْنًا فَجَرَتْ ... عَبَراتُ الْبِشْرِ مِنْ بَعْضِ الجُفونْ

مُقْلَةُ الدُّنْيا فَإِنْ أَبْصَرْتَها ... في سَوادٍ فَعُيونُ الْغِيدِ جُون (٤)

لَثَموا مِنْ رُكْنِها الأَيْمَنِ ما ... لَثَمَتْهُ شَفَتا طهَ الأَمينْ

---

١) رابغ واد من دون الجحفة يقطعه طريق الحاجّ من دون عزور، وقال الحازميّ: بطن رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيّام العرب، ويقع على البحر الأحمر في الطريق بين جدة والمدينة المنورة، يحرم منها الحجاج القادمون من الشام ومصر والمغرب. وقال الواقدي: هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة... راجع معجم البلدان لياقوت الحموي ج٣ ص ١١بتصرف.

٢) جدّة: بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال عن الزمخشري، وقال الحازمي: بينهما يوم وليلة، وهي في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة... راجع معجم البلدان ج ٢ ص ١١٤.

٣) الحجون:جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وقيل الحجون هو الجبل المشرف الذي بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين ... راجع معجم البلدان ج٢ ص ٢٢٥.

٤) المقلة: شحمة العين التي تجمع البياض والسواد... مختار الصحاح للرازي ص ٢٩٦.

هِيَ بَيْتُ اللهِ إنْ طافوا بِها ... وَهُمُ أَضْيافُ رَبِّ الْعالَمينْ

يستمر الشاعر في تجسيد الأماكن التي يمر بها حجاج بيت الله الحرام بداية من رابغ ميقات الإحرام للقادمين من جهة مصر والمغرب ، ويصور الحجاج وهم يتسابقون في التهليل والتكبير، ويعمد إلى اللون الأبيض وما فيه من الصفاء والنقاء ليدلل على صفاء قلوبهم ونقائها مثل صفاء ملابس الإحرام الناصعة البياض فتحسبهم زهورًا في الغصون أو كالدر المصون .

ثم يدخل الحجاج البيت الحرام سواءً العاكف فيه والباد ، فتظهر اللحظة المنتظرة وتمتلئ الجفون بالعبرات لقد شاهدوا الكعبة المشرفة رأي العين فهي مقلة الدنيا وبدونها لا يصح للدنيا قوام ولا يستقيم لها طريق ، ولم يكن منهم إلا أن لثموا الركن اليماني كما لثمه من قبل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وكأن شاعرنا يصور لقاء المحبين على الرغم من طول العهد إلا أن الشوق محكم في القلوب .

إن الكعبة المشرفة بيت الرحمن وهم ضيوف رب العالمين يسقون من ماء زمزم الشافي من الأسقام والذي يذهب ظمأ السنين ، ويصعدون الصفا والمروة سبعة أشواطٍ مترجلين فرحين بآداء مناسك الحج والعمرة، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾(١) ، ولذا قال الشاعر:

صَعِدوا "المَرْوَةَ" مِنْ بَعْدِ"الصَّفا" ... وَسَعَوا لله سَبْعًا راجِلِينْ

وَقَفوا في "عَرَفاتٍ " مَوْقِفًا ... يَطْرَحُ الآثامَ مِنْ ماضي السِّنينْ

إنَّ دَهْرًا طافَ ساقِيهِ بِما ... تَشْتَهي أَنْفُسُهُمْ غَيْرُ ضَنينْ

١) سورة البقرة الآية ١٥٨.

هَبَطوا "جَمْعًا" وَقَدْ سادَ الدُّجى ... وحَدَوْا منْها المَطايا مُصْبِحينْ (١)

هَلْ دَرَى المَشْعَرُ إذْ عاجوا بِهِ ... أَنَّهُمْ جُنْدُ إمامِ المُرْسَلينْ (٢)

نزلوا "خَيْفَ مِنىً" حَيْثُ رَمَوْا ... بالحَصى سَبْعًا عَلى وَجْهِ اللَّعينْ (٣)

وأَتَوْا "أُمَّ القُرى" فَاطَّوَّفوا ... ثُمَّ عادوا "لِمِنىً" في العائِدِينْ

رَكَعوا في مَسْجِدِ الخَيْفِ وَهَلْ ... أَحْرَزوا فيهِ ثَوابَ الخاشِعينْ (٤)

وَقَضَوْا حَقَّ "مِنىً" وَارْتَحَلوا ... بَعْدَ أَنْ أَذَّنَ بالعَصْرِ أَذينْ

سَلْ "ثَبِيرًا" ما لَهُ ظَلَّ بِها ... مُلْقِيَ الرَّحْلِ وقَدْ بانَ الْقَطينْ (٥)

---

١) جمع: المزدلفة معرفة كعرفات، وسميت المزدلفة بذلك لاجتماع الناس بها، وجمع علم للمزدلفة، سميت بذلك لأن آدم وحواء لما هبطا اجتمعا بها... لسان العرب لابن منظور ، ج٨ ص ٥٩.

٢) يستلهم الشاعر المعاني الكريمة في قوله تعالى ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ سورة البقرة:الآية ١٩٨

٣) الخيف: ما ارتفع عن موضع مجرى السيل ومسيل الماء وانحدر عن غلظ الجبل ، ومنه قيل مسجد الخيف بمنى لأنه في خيف الجبل، وخيف مكة موضع فيها عند منى، سمي بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل، ومسجد منى يسمى مسجد الخيف لأنه في سفح جبلها... راجع لسان العرب لابن منظور ج٩ ص ١٠٢.

٤) يستدعى الشاعر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " صَلَّى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْخَيْفِ، يَعْنِي مَسْجِدَ مِنًى، سَبْعُونَ نَبِيًّا لِبَاسُهُمُ الصُّوفُ وَنِعَالُهُمُ الْخُوصُ "

٥) ثبير جبل بمكة، وقيل في معنى قوله أشرق ثبير كيما نغير: يريد ادخل أيها الجبل في الشروق وهو ضوء الشمس، كما تقول أجنب دخل في الجنوب وأشمل دخل في الشمال، كيما نغير أي كيما ندفع للنحر، وكانوا لا يفيضون في الجاهلية حتى تطلع الشمس فخالفهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم... لسان العرب لابن منظور ج ١٠، ١٧٦

هكذا برع شاعرنا في تجسيد مناسك الحج ، وأبدع في تجسيد الأماكن المقدسة فالوقوف بعرفات يطرح الآثام أرضًا وكأنهما شخصان يتصارعان، فينتصر عرفات على الذنوب والآثام التي كبلت النفوس من سنين، كما أنه جعل المشعر الحرام لايدري أن هؤلاء الحجاج هم جند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجهوا إلى الجمرات ليرجموا إبليس اللعين بسبع حصيات امتثالًا لأمر الله تعالى، ثم يأتوا مكة (أم القرى) ليطوفوا طواف الإفاضة ومنها إلى مني فيبيتوا فيها آيام التشريق ، ولم ينسوا وهم بمنى أن يصلوا في مسجد الخيف الذي صلى فيه سبعون نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإذا انقضت آيام التشريق غادروا منى بعد آذان المؤذن لصلاة العصر .

ثم يلجأ إلى التشخيص مرة أخرى فيوجه الخطاب إلى جبل ثبير يسأله عن الراحلين والقاطنين ، ويعمد إلى الألوان مرة أخرى ، ولكنه لجأ إلى اللون الأصفر لدلالته على الصفرة والحزن والحسرة ، فالشمس تعكس صفرتها على وجوه الحجاج وهم يغادرون مكة بعد انتهاء مناسك الحج ، فيقول: ([1])

هَذِهِ مَكَّةُ ما لِلشَّمْسِ في ... صُفْرَةٍ تَحْكي بِها وَجْهَ الحَزينْ

أَثُرينا والنَّوى قَدْ أَزِفَتْ ... كَيْفَ تَصْفَرُّ وُجوهُ النَّازِحينْ

ولكنه يتصبر هو والنازحين من مكة بالذهاب إلى المدينة المنورة ويتمعتون برؤية الروضة الشريفة وزيارة قبر المصطفى خير من وراه التراب ، فقد عمد الشيخ إلى استخدام عبارة (خير دفين) ليدل على عظمة وجلالة هذا المكان ، فهو روضة من رياض الجنة وفيه جسد النبي صلوات ربي وتسليماته عليه، فيقول:

---

١) ديوان خواطر الحياة ص ٢١٤

أَمْتَعا طَرْفي بِمَرْأَى رَوْضَةٍ ... أَوْدَعوا تُرْبَتَها خَيْرَ دَفينْ

رَوْضَةٌ يَصْبو إلَيْها كُلُّ مَنْ ... عَرَفَ الحَقَّ وبالحَقِّ يَدينْ

شادَها الهادي عَلى أُسِّ التُّقى ... وَتلا القُرْآنَ فيها جِبْرَئينْ

حَرَمٌ كَمْ سُقِيَتْ حَصْباؤُهُ ... في دُجى اللَّيْلِ دُموعَ القانِتينْ

فَاسْألوا المِحْرابَ عَنْ بَدْرِ الهُدى ... إذْ هَوى يَسْجُدُ في ماءٍ وَطينْ (١)

مَعْهَدُ الحِكْمَةِ لا يَنْبُتُ في ... دَوْحِهِ إلَّا الدُّعاةُ المُصْلِحونْ

مِدْرَسٌ لِلْحَرْبِ لَمْ يَرْمِ العِدا ... قَطُّ إلَّا بِالكُماةِ الفاتِحينْ

ثُكْنَةٌ لِلْجُنْدِ والْقَضْبِ إذا ... لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الحَرْبِ الزَّبونْ (٢)

يتأمل الشيخ الروضة النبوية ويتمثل أرجائها التي تلا فيها جبريل عليه السلام القرآن الكريم بصوته الشادي مع المصطفي صلوات ربي عليه ، فهى الحرم الذي

---

١) يستدعى الشاعر المعاني الإسلامية في الحديث الشريف مما وري عن أبي سعيد الخدري قوله اعتكفنا مع النبي صلى الله عليه وسلم العشر الأوسط من رمضان، فخرج صبيحة عشرين فخطبنا، وقال: «إني أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها – أو نسيتها – فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر، وإني رأيت أني أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليرجع»، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة، فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته... راجع صحيح البخاري تحقيق محمد زهير الناصر ، الناشر دار طوق النجاة ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، ج٣ ص ٤٦.

٢) الحرب تزين الناس إذا صدمتهم. وحرب زبون: تزين الناس أي تصدمهم وتدفعهم، على التشبيه بالناقة، وقيل: معناه أن بعض أهلها يدفع بعضها لكثرتهم... راجع لسان العرب لابن منظور ج١٣ ص ١٩٤.

سُقي بدموع القانتين في ظلمة الليل ، فليسألوا المحراب النبوى عن قصة سجود النبي صلى الله وسلم في الماء والطين التي وردت في الصحيحين، فقد كان هذا المكان معهدًا للحكمة لم ينشء فيه إلا الدعاة المصلحون .

وكأنه آثر استخدام لفظ (ينبت) لأن الإنسان كالغرس إذا تعهده المربي بالعلم والدين والإصلاح ، فإن النتاج سيكون صالحًا يخدم دينه وأمته الإسلامية، كما أن المسجد النبوي كان معسكرًا لتجهيزات الحرب والدفاع عن الإسلام ضد المعتدين ، وكان مركزًا للجنود في الحروب المتوالية على الإسلام والمسلمين.

ثم يتكلم الشاعر مع النبي صلى الله عليه وسلم ويعرض عليه حال الأمة العربية وما حلها به ، وكأنه لا ينسى دوره الإصلاحي والتنوير ، فيقول:

"خاتَمَ الرُّسْلِ" أَلَمْ يَأْتِكَ ما ... حَلَّ بالأُمَّةِ مِنْ خَطْبٍ مُهينْ
وَيْلَها مِنْ مُرْهِقٍ في عَلَنٍ ... وَخَؤونٍ في ثِيابِ النَّاصِحينْ (١)
لَيْتَ قَوْمًا وَرِثوا هَدْيَكَ لَمْ ... يُغْمِضوا عَنْ مُوبقاتِ المُتْرَفينْ
لَيْتَ قَوْمًا وَرِثوا الرَّايَةَ قَدْ ... فَطِنوا لِلدَّاءِ والدَّاءُ كَمينْ

يلجأ الشاعر إلى الأسلوب الإنشائي في توجيه الخطاب إلى المصطفى صلوات الله عليه وتسليماته ، ويتساءل مستخدمًا صيغة الاستفهام في قوله (ألم يأتك) فهو على يقين بأن أعمال المؤمنين تعرض على النبي صلى الله عليه وسلم وذلك للتعظيم في مقام النبوة ، ولكنه من باب التحسر لما آل إليه حال المسلمين من أمر مهين ، فقد ولي أمرها حاكم ظالم ظلمه ظاهر علانية للجميع، ويدعي النصح ويرتدي ثياب الناصحين وهو خائن لدينه ووطنه .

فهذه القصيدة تعد تعبيرًا عن حالة الاشتياق التي يشعر بها الشاعر، وتأكيدًا لإظهار عظيم شوقه للأراضي المقدسة، فنرى في القصيدة جيشانًا ثم سكينة وهدوءًا

١) الرهق: الظلم. والرهق اسم من الإرهاق وهو أن يحمل عليه ما لا يطيقه. ورجل مرهق إذا كان يظن به السوء، وفلان مرهق أي متهم بسوء وسفه ... راجع لسان العرب لابن منظور ج ١٠ ص ١٣١.

وهكذا تسير القصيدة بين حركة العواطف وسكونها، فتنعكس من خلالها روح الاشتياق الواضح إلى الأماكن المقدسة الطاهرة، فالمتلقي للأبيات السابقة تقع في وجدانه الديني رهافة موحية تربط بين هذا المكان المقدس ومعشوقه في استجلاء رومانسي مرهف لا يتجلى إلا لهذا المكان المقدس، من خلال نور مكة الذي بدد ظلام البشرية ، وعطر المدينة الذى ملأ الدنيا هدى وإيمانًا.

وعبقرية المكان المقدس تظهر من رؤية الشاعر إليها محورًا للعالم والكون بوصفها مكانًا مستثنى، فكانت قصيدته (مشاهداتي في الحجاز) واحدة من أروع قصائده المكانية التي أمتعت المتلقي فهو يربط بين المكان والمكانة، ليجسد لنا قيمة أسمى وأعظم في مكان أعز وأكرم، فمن أجل هذا المكان ذرف دمعه، وامتلئ داخله بمشاعر الشوق لهذه الأماكن الطاهرة، لأنه يجد فيها راحته النفسية ويبحث عن اتزانه المفقود خارجها، وتظل الصور متجددة إيمانيًا داخل القصيدة، وتسري في الخطاب الديني سموًا في التصوير لهذه الرحاب المطهرة وخصوصية الروحانية التي يشعر بها على أرضها، فهذا النموذج الرائع لجمال المكان اعتمد فيه الشاعر على خيال شعري بسيط قريب، لكنه يحمل قدرة هائلة في إبراز الصورة الجمالية.

كما نلحظ أن الأماكن التي وصفها الشاعر في قصيدته قد أخذت أوضاعًا إنسانية، فالشوق دفعه إلى البيت الحرام ، والمشعر الحرام بالمزدلفة يتعجب من كثرة الحجاج ، والمسجد النبوي ينبت الدعاة المصلحين، والشاعر يناجي قبر النبي – صلى الله عليه وسلم– ويعرض عليه ما حل بالأمة من ضعف ووهن، وهكذا جسدت الصورة الاستعارية التشخيص في الأبيات مما أضفى جمالية على المكان.

❁❁❁

الخاتمة

فقد كانت هذه الدراسة وقفة متأنية مع جماليات المكان في ديوان خواطر الحياة للشيخ محمد الخضر حسين، حاولت أن تكون شاملة مستقصية – ما وسعني الجهد – حتى تثمر الدراسة الثمرة المرجوة منها في الجانب الإصلاحي الذي قام به الأزهر الشريف على طول عهده بأيدي شيوخه الأجلاء، **وهذه أهم نتائج الدراسة مجملة** :

- شيوع الألفاظ المكانية في الديوان التي أخذت أوضاعًا إنسانية، وجسدت الصور المجازية التشخيص في القصائد مما أضفى جمالًا على المكان.
- حظيت الأماكن المقدسة عند الشاعر بعناية روحانية خاصة ، فنالت الأماكن المقدسة عنده نصيبًا وافرًا ، فكان لكل مكان من تلك الأماكن خصوصية تخرجه عن نظرائه من بقية الأماكن.
- تميز شعر محمد الخضر حسين بسمات جعلت منه شعرًا متفردًا، حيث يمتلك الشاعر طاقة عميقة تضرب في أعماق النفس البشرية، وتمكنه من خلق التركيبة الشعرية السحرية من غير افتعال ولا ترصد.
- كان الدور الإصلاحي الذي يقدمه الشاعر في القضايا المجتمعية لا يتمثل فقط في عرضها بل يعالجها ويقدم الحلول المناسبة لها.
- لجأ الشاعر إلى استلهام معاني وألفاظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ؛ ليدلل على أنه شاعر إسلامي في المقام الأول.

وبعـــد ،

فهذا ما وفقني الله -عز وجل- إليه ، فإن أصبت فهو مرادي ، وإن أخطأت فلن أتشبث بخطئي ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

١. الأحاديث الطوال للطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الناشر مكتبة الزهراء بالموصل ، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٢. تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية د. ت.

٣. تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري تحقيق محمد عوض، الناشر دار إحياء التراث العربي ببيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٤. الجامع لأحكام القرآن لشمس الدين القرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٤م.

٥. جماليات المكان في شعر ابن خفاجه الأندلسي د. أحمد نبوي بحث منشور في مجلة فكر وإبداع بمصر ٢٠١٣م

٦. الدعوة إلى الإصلاح للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ببيروت ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٧. ديوان خواطر الحياة للإمام محمد الخضر حسين، الناشر دار النوادر، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م.

٨. الرحلات للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٩. سنن الترمذي تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، الناشر مطبعة الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٥م.
١٠. سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، الناشر دار الحديث بالقاهرة عام ٢٠٠٦م.
١١. الشمائل المحمدية للترمذي، تحقيق سيد بن عباس الناشر المكتبة التجارية بمكة المكرمة الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
١٢. صحيح البخاري تحقيق محمد زهير الناصر ، الناشر دار طوق النجاة ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
١٣. صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر دارد إحياء التراث ببيروت.
١٤. العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر دار الجيل ببيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م
١٥. فاعلية المكان في الصورة الشعرية د. علي متعب ، د. منى شفيق بحث منشور في مجلة ديالي ببغداد العدد الأربعون ٢٠٠٩م.
١٦. فتوح الشام للواقدي ، الناشر دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
١٧. القاموس المحيط للفيروزآبادي ، الناشر مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م.
١٨. لسان العرب لابن منظور الناشر دار صادر الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ،

١٩. مختار الصحاح للرازي تحقيق يوسف الشيخ محمد ، الناشر المكتبة العصرية ببيروت، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م .
٢٠. معجم البلدان لياقوت الحموي ، الناشر دار صادر ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م .
٢١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب الخوجة ، الناشر الدار العربية للكتاب بتونس ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٨م.
٢٢. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، الناشر دار النوادر بسوريا، الطبعة الأولى ٢٠١٠م .
٢٣. الموسوعة التاريخية الدرر السنية، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف علوي عبد القادر السقاف، الناشر موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net
٢٤. الهداية الإسلامية للإمام محمد الخضر حسين ، الناشر دار النوادر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م